سحب مبرّر الاستمرار في التوحّش

في السنة الثالثة من المرحلة الابتدائية تغيّرت المعلّمة، وصار بدلها ثلاثة معلّمين، معلّم ومعلّمتان. إحدى المعلّمتين كانت تدعى "سهام"–وفعلا كانت شديدة الحدّة في طبعها كالسهام–كانت كثير الضرب ودائمة الصراخ ولا تترك الوعيد بالعقاب أبدا، كانت تعد ولا تخلف أبدا. وفي إحدى الأيام كُلّف التلاميذ بواجب منزلي في مادة الحساب. قطر الندى لم تكن كسولة مطلقا، كانت مجتهدة في دراستها كثيرا وكانت منضبطة داخل القسم والكل يشهد لها بذلك ومنهم هذه المعلّمة. لكن في هذه المرة لم تستطع قطر الندى حل هذا الواجب المنزلي لسبب قهري خارج عن إرادتها. كان لها عذرا شرعيّا، لم تستطع شراء الكتاب.

كانت قطر الندى من عائلة متواضعة على المستوى الماديّ كثيرا. وكان لعائلتها مكتبة وحيدة يأخذون منها الأدوات المدرسية، ويمكنهم أن يسددوا لها ثمنها لاحقا، متى استطاعوا. صاحب هذه المكتبة صديق العائلة وعلى علم بظروفها المادية وعلى علم كذلك بسمعتهم الجيّدة وسيرتهم التي لا تشوبها شائبة.

جاء يوم تفقّد حلّ الواجب المنزليّ وأمرت المعلّمة "سهام" أن يخرج للسبورة كل من لم يحلّ الواجب، فامتثلت قطر الندى الأمر معوّلة على تفهّم المعلّمة لها بناء على علمها بوضعها الماديّ. لكن هيهات، بدأت "سهام" بمعاقبة التلاميذ واحدا تلو الآخر ضربا بعصا غليظة على أيديهم الصغيرة بمنتهى الوحشيّة والعمى عن حجم الضرر التي كانت تسبّبه لهم. وما إن وصلت إلى قطر الندى صاحت بها كما صاحب على كل فرد من التلاميذ الذين لم يحلّوا الواجب: "لماذا لم تحلّ الواجب؟" ردّت قطر الندى بصوت مرتجف وأمل في أن تستر "سهام" عن العذر الذي يمكن أن يتحوّل إلى وسيلة تنمّر من زملائها وزميلاتها الصغار: "لا أملك كتابا!".

وفجأة قفز لذهن المعلّمة ما تعرفه عن عائلة قطر الندى وتدركه جيّدا باعتبار أنها كانت قد درّست كل إخوتها الذكور والإناث قبلها. ولكن الإنسان عندما يغضب يتلبس به الشيطان فهو في هذه الحالة الشعورية أكثر ضعفا وأقل سيطرة على نفسه، وقد كان غضب هذه المعلّمة يزداد–كنار زادها الزيت التهابا–مع كل ضربة تضربها تلميذا صغيرا. وهذا الواقع

عند حالة الغضب بعكس ما يظنّه البعض ان التنفيس عن الغضب والتخفيف من حدّته بتفريغه بِرَدَّاتِ الفعل العنيفة والهستيريّة.

لم تستطع "سهام" أن تلجم غضبها بعد سماع هكذا عذر شرعيّ، أطالت النظر بقطر الندى، وقد زادت نقمتها عليها إذ أنّها سلبتها جميع مبرّرات الاستمرار بهذا التوحّش. وصاحت بها ثانية:" تعالي معي." تبعتها قطر الندى وهي تحمد الله أنها–كما كانت تظنّ–أنّها لن تعاود تعنيفها ثانية. وصلتا إلى مكتب المدير حيث كان في إحدى زواياه مجموعة من الكتب التي وضعت فوق بعضها البعض بشكل شبه مرتّب إلى حدّ ما، وأشارت بعصاها الغليظة إلى الكتب: "أنظري أيّهم الكتاب المطلوب، بسرعة." سريعا بدأت قطر الندى بالبحث وهي شديدة الارتباك، يداها تؤلمانها من قوّة الضربات وترتجفان خوفا من أن تعاود المعلّمة تعنيفها ثانية، بسبب البطء في البحث–مثلا– لأنها كانت تردّد كلمة "هيا بسرعة!" بنبرة حادة متصاعدة الحدّة. قطر الندى كانت تشقى لتستجمع بعض التركيز لتميّز الكتاب المطلوب عن غيره، يا لها من لحظات جهنّميّة! شاركتها المعلّمة البحث بعصاها الغليظة، ولكنّها كانت مشاركة معرقلة فهي كانت تبحث بعنف وتضرب الكتب لتبعدها عن بعضها وقطر الندى كانت تخاف أن تصادف بعصاها يداها فتتلقى ضربة مثل الكتب وبنفس الشدّة. استغرق ذلك وقتا حتى وجدتا الكتاب وإلى حين العثور عليه انهالت "سهام" على الطفلة الصغيرة بالضرب من كل جانب. مشهد درامي، لا يوجد سوى في مسلسلات الكرتون الحزينة كـ «سالي» و«سندريلا» و"أنا وأخي" وما شابههم: المعلّمة ضخمة الجثّة، وجهها أحمر يتطاير منه الحقد ويوحي بتراكمات كبت وقهر وإكراه عاشتها وتعيشها المعلّمة، منتفخة الأوداج، يدها كبيرة ومكوّرة منقضّة على العصا، وعصا لا يكن في المدرسة كلّما ما يضاهيها حجما–فهذه المعلّة كانت معروف عليها السبق في مجال التعذيب والتوحّش إذ لا نظير لها– كل ذلك عمي عيناها عن حجم الطفلة الصغير وضعف حيلتها بها ووضعية جلوسها التي زادتها ضعفا.

ستحفر هذه الحادثة في ذهن قطر الندى اعتقادا عن نفسها وزاد ترسّخا مع كل التجارب التي ستخوضها في مستقبلها حتى موعد اجتيازها امتحان الباكالوريا ونجاحها ودخولها الجامعة، التي كانت رجاؤها الأوحد للتخلص من هذا الاعتقاد، اعتقاد دونية الذات عن سائر الناس. لقد رسمت هذه الحادثة على هيئة امرأة تشير عليها بإصبعها السباب وتقول لها: "قطر الندى لا مكان لك في هذه الحياة، أنت لا شيء، لا قيمة لك، بل لا أحد يراك حتّى ولا أحد يراك بشرا له اعتبار." هذه المرأة كانت الحياة، وهذه الجملة كانت تكرر

على مسامعها حتى جاء الفرج بعد دخول الجامعة، هذه الجامعة نعمة أنعم الله بها على قطر الندى، يكفيها فقط أن تمضي بقيّة حياتها تشكر الله وتحمده عليها